لغة الجسد في مقامات الهمذاني: المقامة القردية أنموذجا

Body language in the Maqamat of Hamadani : El maqama el karadia as a model

تاريخ الاستلام : 2019/11/16 ؛ **تاريخ القبول :** 2020/04/04

د. راضية صحراوي *

كلية الأدب و اللغات
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1،
قسنطينة، الجزائر

ملخص

تقوم هذه الدراسة على مقاربة منهجية في كيفية استخدام لغة الجسد بوصفها رسائل شعورية ونفسية من جهة ، و ذات حمولة دلالية من جهة أخرى .

إنطلاقا من هذا يقدم هذا المقال قراءة تحليلية للغة الجسد من خلال مقامات بديع الزمان الهمداني في تطويع جسده حسب الحالات النفسية والوضعيات العاطفية المختلفة التي تكون عليها شخصيات مقاماته.

الكلمات المفتاحية: لغة الجسد؛ المقامة؛ حركات الجسد.

Abstract

This study is built upon a methodological approach concerning the use of body language as a set of emotional and psychological message on one side and semantic load on the other.

Consequently, this article presents an analytical interpretation of body language as it appears in the maqamat of Badi' Al Zaman Al Hamadani when he adapts his body to the various psychological and emotions around whitch revolve the of his Maqamat.

Keywords: body language ; Maqama; body movements.

Résumé

Cette étude se repose sur une approche méthodologique de la manière d utiliser le langage corporel porteur de messages émotionnels d' une part . d' une autre part , d'une charge sémantique .

Notre article présente une lecture analytique du langage corporel a partir de Maqamat de Badea Zamen El Hamadani qui a essaye d'adapter son corps avec les états d'âme et psychologiques dont reposent les personnages de Maqamat

Mots clés: langage corporel; Maqama; mouvements du corps.

* Corresponding author, e-mail: sahraoui.radia@umc.edu.dz

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2020.

I - مقدمة

تعد الكدية السمة الأبرز في الحياة الاجتماعية في عصر الهمذاني ، لدى شكلت الموضوع الأساس لمقاماته ، وقد ارتبطت في أغلب المقامات بشخص الأسكندري الذي أوكل إليه الهمذاني دور البطولة في الكدية والاحتيال على السذج والبسطاء من عامة الناس ،كما أوكل مهمة السرد لعيسى ابن هشام الذي كان شاهدا على براعة الاسكندري في الاحتيال من خلال التخفي وراء شخصيات بهيئات وحالات نفسية مختلفة ، فبالاضافة لبراعته اللغوية حاول الاسكندري تطويع جسده وجعله قابلا للتبدل و التغير ، فهل برع في جعل جسده مطواعا قابلا للتبدل بما يتناسب و الشخصية التي يتقمصها ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تحيلنا إلى دراسة لغة الجسد باعتبارها سلوكا غير لفظي ملازم للكائن البشري منذ أن ولد الإنسان على سطح البسيطة وظل الوسيلة التواصلية الأهم حتى مع تطور اللغات اللفظية، فحين نتكلم تلعب أجزاء كبيرة من جسدنا دورا في هذه العملية إضافة إلى الأجزاء الأساسية المستخدمة كالشفتين و اللسان و الفكين ، فقد نستخدم العينين وعضلات الوجه وقد نحرك رؤوسنا أيدينا ،أدرعنا و ربما أقدامنا ، ويختلف مقدار تدخل هذه الأعضاء في عملية الكلام فيما ندعوه الإيماء المرفق بالكلام من شخص لآخر ، بل من شعب لآخر.

ولم تعد لغة الجسد ذلك السلوك الفطري الذي يمارس بكيفية تلقائية بل أصبح يمارس بكيفية ممنهجة و مدروسة قصد التواصل و التأثير في الآخرين مما زاد من أهمية توظيف الحواس الخمس و في مقدمتها حاسة البصر.

II- مفهوم لغة الجسد:

لغة الجسد هي " الإشارات الدالة على معان بعينها بجزء من أجزاء الجسد "[1]هذه الأجزاء تعتبر وسائل غير لفظية تقوم بوظيفة التواصل" تتمثل هذه الوسائل في وجود أنظمة من العلامات غير اللفظية تخضع مثل اللغة لاتفاق وتواضع الجماعة conventionality و تعمل متظافرة تارة أو مستقلة تارة أخرى من خلال السياق الثقافي culturel context لكل مجتمع كما تعمل هذه الأنظمة من خلال الحواس الخمس: السمع و البصر و اللمس و الشم و الذوق التي تحـدد بدورها نظام العلامات و ظيفته"[2] فلغة الجسد كاللغة المنطوقة نظام من الإشارات أو الحركات يعبر بها عن أفكار معلنة أو خفية شريطة أن تكون مفهومة لدى المجتمع الواحد، كما إن هذه الإشارات"ترسل رسالات محددة في مواقف و ظروف مختلفة ، تظهر لك المشاعر الدفينة و تخرجها للسطح فتصل من خلالها معلومات أو أفكار عن الشخص الآخر بحيث لا يستطيع إخفاء الأفكار التي تدور في ذهنه"[3].

بالإضافة إلى الحركات و الإشارات قد يلجأ الإنسان إلى عناصر متممة ومساعدة " تتمثل فيما يستخدمه الإنسان من وسائط و أشياء توجد في البيئة ويستعملها الإنسان بوصفها علامات محملة بدلالات مختلفة إلى جانب استخدامها في أغراض أخرى مثل

الملابس المصنوعة الإمكانات المتاحة في البيئة مثل القطن والصوف و الحرير والكتان التي يرتديها الإنسان بغرض تغطية جسمه و حمايته من الحر والبرد ،و تمثل في نفس الوقت نظاما من العلامات تخضع لاتفاق المجتمع من ناحية ، وتقوم بوظيفة التواصل بين أفراد المجتمع من ناحية أخرى"[4].

" يجري مفهوم لغة الجسد على كل ما يكون من الجسد حاملا لرسالة ليست فيه بما في ذلك جميع الجوارح من اليد أو الذراع أو الأصابع أو العين أو سائر ما تكون به الإشارة منها ، وتجري حركة الجارحة على جميع الحركات بمختلف أنواعها كائنة من الأصابع أو اليد أو الذراع أو من جميعها مزامنة للقول و مصاحبة له مصاحبة عفوية لا إرادية آلية أو غير مصاحبة له ، ويمكن توسيع حركة الجارحة لتشمل قسمات الوجه في مظهرها التعبيري و ما شابه ذلك من إشارة بالعين أو الشفة وما إليها"[5]، فكل ما يصدر عن أعضاء الجسم من حركات سواء كانت مصاحبة للكلام بطريقة عفوية أو غير مصاحبة له يمكن عدها للغة للجسد ،بالإضافة إلى ما يمكن أن يرسم على الوجه من إشارات بالعين والشفة وما إليها ، ومنه يمكن أن تكون هذه الحركات حاملة لرسالة معينة وإلا يمكن عدها حركات عادية عضلية لأداء مختلف الأعمال.

وينتج عن لغة الجسد جملة من الرسائل التواصلية "نتلقاها غبر حواسنا الخمس ويتم تداولها عبر قنوات متعددة ، وتشمل كل الرسائل التواصليــة حتى تلك التي تتداخل مع اللغة اللفظـــية والتي تعتبر ضمن بنيتها "[6]، فالرسائل التواصلية قد تكون لفظية فقط أو لفظية مصحوبة بإشارات هذه الإشارات هدفها إما تأكيد دلالات هذه الألفاظ من ناحية أو إكمال ما يعتورها من نقص من ناحية أخرى.

وقبل أن تكون الحواس متلقيـة للرسائل التواصلية هي منتجة لهـا" عبر سلوك العيـن،و تعبيرات الوجـه ، و الإيماءات و حركات الجسد ، وهيئة الجسد و أوضاعه ، والشم و اللمس ، والذوق ، والمسافة ، والمظهر و المنتجات الصناعية ، والصوت ، والوقت و مفهوم الزمن ، وترتيب البيئة الطبيعية والاصـــطناعية "[7].

قد يتكلم الجسد بينما يبقى اللسان صامتا ولا يدري صاحبه أن جسده يفشي أسراره للآخرين ، نعم فحركات الجسد تشي بمكنون النفس ، لأن الحركات التي تصدر عن الإنسان في مقابلة ما ، تترجم إلى معان عدة ، والتواصل الإنساني لا يتوقف عند حدود الكلمات المنطوقة أو المقروءة أو الحركات المتعمدة كالتقطيب أو التبسم أ, المعانقة أو المصافحة مثلا ، هناك حركات لأجسادنا لا نشعر بها هي تحت عدسة علماء النفس كاشفة لشخصياتنا و ما تضمر من شعور "[8] ،فالكثير من البشر لا يدركون أن حركاتهم و إشاراتهم و أوضاعهم يمكن أن تومئ بشيء ما ، في حين أن الصوت يمكن أن يحكي عن شيء مغاير تماما ، فالعقل الإنساني يمتلك مفتاح أمان و تحكم قد يسجل إنزياحا عندما يستقبل وسائل صامتة غير متوافقة و منسجمة، لدى تكمن الأهمية في دراسة لغة الجسد في القدرة على فهم الحالة العاطفية للأشخاص من خلال حركاتهم.

من خلال ما سبق يمكن القول أن لغة الجسد هي رسائل شعورية تنطلق من جسد الإنسان لإيصال مفاهيم أو رسائل معينة للأخر، وقد تكون مصاحبة للغة المنطوقة فتقوم بتأكيد دلالات هذه الألفاظ من ناحية ، أو إكمال ما يعتورها من نقص من ناحية ثانية.

III - أنواع حركات الجسد:

تعتبر حركة الجسد خاصية بشرية من حيث طبيعتها و توظيفها فبالإضافة إلى وظيفة الأعضاء المعهودة فإنها تؤدي معنى تواصلي تفاغلي ، ويتسع مفهوم حركات الجسد إلى أنواع كثيرة ، نستطيع في البداية تحديد نوعين كبيرين هما الحركات الجسدية الولادية والحركات الجسدية الدالة على معنى .

حركات جسدية ولادية:
هي جملة الحركات التي يقوم بها الجسد منذ الولادة والتي يشترك فيها جميع البشر دون اعتبار لانتماءاتهم اللغوية ، وهي عادة حركات عضلية تؤدى بها الأعمال المختلفة ولا يكون لها دلالة أو معنى .
حركات جسدية دالة على معنى:
هي جملة الحركات التي يكون الغرض منها معنى معين سواء كان مقصودا أو خفيا ويمكن تقسيمها إلى أنواع.
حركات جسدية إرادية :
هي حركات جسدية مقصودة يستعين بها الإنسان على آداء مراده و تجليته و نذكر منها :
الإيماء : "هي حركات ذات صلة بالكلام المصاحب أو المزامن لها و هو أكثر حركات الجارحة تواترا في السلوك اليومي يتضمن حركة الذراعين و اليدين ويمكن للرأس أن يؤدي جملة من الحركات من هذا القبيل عندما تتحرك حركة اليدين أو الذراع لسبب من الأسباب و كذلك الأمر لحركات الساقين أو الرجلين"[9]
حركات مرتبطة بالكلام: وهي تشكل جزءا من الخطاب ، فتكون الحركة مكملة لبنية الجملة ومعناها حيث يبدأ كلامه بجملة وينهيه بحركة و يكون المحصل معنى متكامل يمتزج فيه القول بالحركة[10].
الإشارات الرمزية: هي إشارات تواضعية كالإشارة بالإبهام وضم الأصابع الأخرى دلالة على الاستحسان والاستقباح [11]، أو إشارة التصامم بوضع الأنامل في الأذنين عند سماع صوت مزعج أو مكروه أو مستقبح[12].
السرد الإيمائي: هو جملة حركات الجسد بمختلف أنواعها " تحدث بصفة مسترسلة يكون بها سرد مضمون مطول من قبيل القصة أو المشهد المعيش أو المتخيل و ما إلى ذلك وجميع ذلك يكون بلا كلام مقطع يصاحبه"[13].
لغة الإشارة: هي " رصيد من العلامات الإشارية التي تمثل الوحدات المعجمية و نحو فيكون لها بنية شبيهة بالبنية اللغوية من حيث الوحدات الدنيا والتوليف بينها و مظاهر التوصيف"[14]
حركات جسدية تلقائية لا إرادية:
هي حركات تصدر عن اللاوعي و " لا أثر لإرادة المرء من تخلقها و تجليها في وجهه وجوارحه ، ومن ذلك ما يظهر من دلالات على وجل الوجل وخجل الخجل ، فاحمرار الوجه إيماءة جسدية تلقائية تتخلق في الوجه تخلقا غير مقصود وليس بِمُكْنة المرء صدها و من استطاع إلى ذلك سبيلا فلن يكون ذلك طويلا البتة"[15]، فمجمل الحركات اللاإرادية حركات لا يمكن للمرء التحكم بها لأنها تصدر عن لاوعي الإنسان دون قدرة منه على صدها ، لتعبر عن عواطف ليست باستطاعة الإنسان إخفاؤها .
ومهما كانت طبيعة الحركة أثناء عملية التواصل فإنها لا تشمل المتكلم فقط و إنما تشمل المستمع أيضا وذلك أن " المستمع يميل أن ينسق جسمه و أن يغير وضعه تبعا للمتكلم كأنه صورة مرآة له ، وهكذا يبدو أن المستمع يتابع المتكلم كما لو كان عليه أن يتخذ دور هذا المتكلم ليفهم بصورة أكثر شمولا ، ويتوقف المستمع عن المتابعة عندما يكون قد استمع بما فيه الكفاية و يريد أن يتكلم هو نفسه و تكون حركاته إشارة للمتكلم كي يكف عن الكلام"[16]

ومما لا شك فيه أن حضور لغة الجسد لا يعني بالضرورة غياب الكلام فحضوره يكون بدرجات متفاوتة من نوع لآخر فيكون " في أقصى درجات الحضور في الإيماء حيث يكون حضوره كالضروري ثم يتقلص عل تدرج حتى ينعدم في السرد الإيمائي"[117]، كما يكون متناوبا مع الحركات " فتنوب الكلمة عن الحركة أو تكون الحركة والكلمة حاملا إخباريا ذا معنى متكامل كما هو الأمر في الايماء ، فالكلام يصحبه دون أن يكون للواحد منهما خصائص الآخر فهما مختلفان متباينان متزامنان"[18]، ويكون الكلام في مواضع أخرى مصاحبا للحركات وجوبا حيث تكون الحركة مكملة لبنية الجملة ،" أما السرد الإيمائي ولغة الإشارة فلهما خصائص الكلام الأساسية من حيث يستغني الواحد منهما عنه مطلقا فلا يصاحبه بالضرورة" [19]، فلغة الإشارة لغة لها وحداتها المعجمية و النحوية كاللغة تماما، كذلك السرد الإيمائي قادر على التبليغ دون الحاجة إلى الكلام فتؤدي الحركات ما يمكن أن تؤديه اللغة لأنها تحمل دلالات مفهومة مثل كلمات اللغة تماما والانسان يتكلم بجسمه كما يتكلم بلسانه.
" وإذا كانت اللغة المنطوقة قد تتوقف على ألسنتنا لسبب أو آخر ، فإن لغة الإشارات الجسمية لغة مستمرة متواصلة لا تتوقف عن التعبير ، وإذا كانت اللغة المنطوقة يمكن أن نخفي بها مشاعرنا و نكذب على الآخرين ، فإن لغة الإشارات الجسمية تكشف دائما عما تخفيه"[20]

IV -لغة الجسد في المقامة القردية:

يفتتح الهمذاني مقامته على مشهد يعج بالحركة والنشاط وهو مشهد عودة عيسى بن هشام من زيارة البيت الحرام يقول" بينما أنا بمدينة السلام قافلا من البلد الحرام ، أميس ميس الرجلة ، على شاطئ دجلة ، أتأمل تلك الطرائف و أتقصى تلك الزخارف"[21]، هذه الزيارة جعلته في حالة من السعادة و الفرح لقضاء مناسك الحج أو العمرة ، فتخفف من آثاره و ذنوبه مما جعله يمشي على شاطئ دجلة مفعما بالحيوية والنشاط ممتلئا بالفرح و الزهو و التطلع إلى الحياة فكأنه خلق من جديد ، و إذا كان لكل واحد منا "مشيته الخاصة و إيقاعه و ترجيح ذراعيه و توجيه قدميه ، إن مشيتنا تؤلف جزءا من هويتنا و مع ذلك فقد تختلف من يوم لآخر تبعا للحالة النفسية التي نجد أنفسنا فيها"[22]، والحال كذلك مع عيسى ابن هشام فقد اختلفت مشيته بعد أن تخلص من كل ما من شأنه أن يعوق حركته كالشعور بالإثم .
عاد ابن هشام إلى دار السلام مزهوا سالما آمنا مستقبلا الحياة بخفة وكأنه يدخلها للمرة الأولى ، فقد تغير حالها ولم تعد كما كانت من قبل ، وتغيرت بيوتها وزينت بزخارف أثارت انتباهه فأخذ يتأمل المكان بتمعن ن وما لفظ التأمل الذي يعني إعمال الفكر والعقل والبصر للوصول إلى اكتشاف معالم الجدة إلا دليل على هذا التغيير .
كان هذا التغيير مبالغا فيه لدرجة أن عيسى ابن هشام حاول الوقوف على دقائق كل شيء فكانت العين بمثابة العدسة اللاقطة لكل جديد من خلال تقصي الزخارف حتى لا يفوته منها فائت ، فقد غرقت المدينة في الترف المبالغ فيه ،لكن الملاحظ أن هذا الترف شمل الظاهر دون الباطن ، شمل البنيان ونسي الفرد ، نسي أبا الفتح وأمثاله من الأشقياء الذين اتخذوا من الحيلة وسيلة للعيش بعد أن ضاقت بهم كل السبل .....
مع تقدم عيسى ابن هشام في سيره ووصوله إلى الحلقة المزدحمة تبدأ أحداث المقامة ، وقد شكلت الحركة العنصر البارز فيها ، فكل شيء يتحرك بدءا بالرجال المزدحمين المتهافتين على هذه الحلقة غايتهم اكتشاف ما يدور وسطها ، متأثرين بما يسمعون ، و دون تردد تبعهم عيسى ابن هشام يقول" إذ انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب أعناقهم و يشق الضحك أشداقهم"[23]فالأصوات الصادرة من وسط الحلقة كانت بمثابة المحفز لهؤلاء ، وعادة ما ينشأ تحت تأثير نشوة المرح ميل قوي إلى آداء حركات متعددة بالإضافة إلى التفوه بأصوات مختلفة ، ولعل في تلوية الرأس طربا حركة دالة ورسم لمعنى الخروج عن الاعتدال وتغييب العقل وللمرء أن يتصور حال

من طرب ،فقد يقهقه ضحكا ويحرك رأسه أو يميل به و قد يصفق بيديه أو يدق الأرض برجليه، ذلك أن الفرح والحبور يسرعان الدورة الدموية ، وهذا بدوره يحفز الدماغ الذي يؤثر في جميع أجزاء الجسم ، وهو حال هاته الجماعة ، فالكل يرقص و يضحك، والضحك يعبر بدرجة كبيرة عن حالات انفعالية كما له تأثير معدٍ بدرجة عالية ، و هذا ما يفسر الحالة السائدة في هذه الحلقة وبالرغم من أن اللغة قادرة على توصيل إنفعالات المرء إلا أنها أقل كفاءة مقارنة بأنواع الاتصال الأخرى غير اللفظية " إن نغمة الصوت ووضع الجسم و تعبير الوجه و الأصوات المخصصة لذلك من مثل الضحـــك و البكاء هذه كلها أدوات أقوى بما لا يقـــاس لنقل الحالة الانفـــعالية "[24].

وسط كل هذا الازدحام طاقت نفس عيسى ابن هشام إلى معرفة ما أثار هذه الجموع ،فراح يتسلل في حركة متسارعة وسط الحلقة ليعرف سر هذه الزحمة وشدة الهجمة ، يقول "فساقني الحرص إلى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون مرأى وجهه لشدة الهجمة و فرط الزحمة" [25]، لم يستطع عيسى ابن هشام تجاوز تلك الجموع ، لكنه واصل التغلغل في الحلقة حتى اخترق سمعه صوت رجل دون رؤية وجهه" فإذا هو قراد يرقص قرده و يضحك من عنده"[26]،في هاته الأثناء يطل بطلا الحلقة ، القراد وقرده

اعتمد الاسكندري على القرد للتأثير على انفعالات الناس سواء بالضحك أو الرقص كوسيلة للإضحاك ، واستطاع أن يجلب بعقله و ذكائه و فطنته انتباه الجماعة ، كما استطاع السيطرة على عقولهـــم و أجسادهم ،فإذا كان من عادة الجماهير إذ اجتمعت أن تضع نفسها بشكل غريزي تحت سلطة زعيم ما ، فإن الاسكندري كان بمثابة القائد لهذه المجموعة والمتحكم فيها وكان القرد بمثابة المنبه الذي أدخل الحلقة في حالات انفعالية متناغمة وهناك ثلاث طرق يمكن أن تجعل الحالات الانفعالية تتناغم بعضها مع بعض" أولا يمكن أن تجري الاستجابة من خلال محاكاة (أيقونية) تلقائية، ثانيا يمكن أن تأخذ شكل رد فعل إزاء منبه عرضي مشترك (دليل موضوعي) ثالثا يمكن أن تتم في صورة تمثل لحالة الآخر " [27]، فأغلب من في الحلقة كان في حالة استجابة تلقائية نتيجة وجود منبه عرضي وهو القرد والقراد ، هذا المنبه دفع الجميع إلى الرقص والضحك ، والواضح أن الاسكندري أدرك أن هذه الجماعة لم تعد تحتفي بأهل العلم والأدب ،كما أصبحت تشكو من الفراغ في الوقت وانعدام الحاجة إلى العمل فما كان منه إلا أن هجر العلم و امتهن الكدية كسبا للرزق و سترا لكرامته بغض النظر عن تفاهة الوسيلة متخذا من مبدأ الغاية تبرر الوسيلة شعارا له، كما أن اتخاذه للقرد كوسيلة للإضحاك لم يكن اعتباطيا و إنما كانت له دلالات أراد الاسكندري توصيلها أهمها تراجع مكانة العلم والعلماء و تقديم الحيوان على الانسان.

كان هدف الاسكندري الحصول على المال وبالرغم من تفاهة الوسيلة إلا أنه استطاع التحكم في عقول الجماعة و انفعالاتهم ، والمتعارف عليه أن الأفكار و العواطف و الانفعالات كالجراثيم تعدي ، فإن عدوى الطرب و الرقص أصابت كل من التف حول هذه الحلقة يقلدون القراد وقرده ، وما إن وقعت عين عيسى ابن هشام على مشهد القرد والقراد حتى وجد نفسه منغمسا مع الجماعة في حالة اللهو و العبث التي كانوا يعيشون يقول " فرقصت رقص المحرج و سرت سير الأعرج فوق رقاب الناس"[28]،ولم تثنه زيارة البيت الحرام عن الخوض فيما كانوا يخوضون ، فساقه الحرص إلى ما ساقهم وقاده الفضول إلى الرقص ، والواضح" أن الفرد المنضوي بعض الوقت في وسط جمهور هائج سرعان ما يسقط في حالة خاصة تشبه كثيرا حالة الانجذاب الشديد الذي يشعر به المنوم مغناطيسيا ، فإنه يصبح عبدا لكل فعالياته اللاواعية ، ويصبح منومه قادرا على توجيهه الوجهة التي يشاء . وهكذا تصبح الشخصية الواعية مغميا عليها ، وتصبح عواطف المنوم و أفكاره موجهة في الاتجاه الذي يحدده المنوم"[29] ، فلم يعد

عيسى ابن هشام و كل من كان في الحلقة واعيا بأعماله ، الجميع يرقص وكأنها عدوى أصابت كل من كان في الحلقة . ويصف لنا عيسى ابن هشام رقصته مشبها إياها برقص المحرج ، وهو الكلب المطوق بالذهب و الفضة ، وهذا إنما يدل أن المال أصبح زينة للكلاب ممنوعا على العلماء و الأدباء ، والواضح أن الحالة النفسية التي يمر بها من فرح و عبث أثرت على طريقة سيره أفقدته توازنه فسار سير الأعرج ، ولنا أن نتصور مشيته وسط هذه الجموع فمتى أراد التقدم دفعوه نحو الخلف و متى قصد اليمين دفعوه نحو الشمال و لو أراد الخلف دفعوه نحو الأمام و عادة ما يكون " العرج علامة الضعف و عدم الاكتمال و اللاتوازن ، ففي الأساطير و الخرافات و الحكايات يقترح البطل الأعرج حولا يمكنه أن يتمظهر عبر نـهاية رحلته و إعلان سفر جديد ، فالأعرج يشير إلى الشمس الغاربة أو إلى شمس بداية و نهاية السنة ، فإذا كانت القدم رمزا للنفس و الروح ، فإن عاهـتة في الرجل أو في المشية تفضح عن ضعــف أو وهن في النفس"[30].

إن توظيف العرج هنا ليس لكونه عاهة جسدية بقدر ما هو عاهة نفسية تشي بضعف عيسى ابن هشام أمام الشهوات فلم تـــمنعه زيارته إلى البيت الحــرام من المشاركـــة في الرقـــص و اللهو و العودة إلى طريــق الغرائز ، و الظاهر أن هذه الزيارة لم تغير شيئا من طباع عيسى ابن هشام فما إن وجد الفرصة حتى رجع إلى طباعه العادية ، فعقله اللاواعي مازال يحتفظ بكل الصفات التي اعتقد عيسى ابن هشام قد تخلص منها بعد العودة من البيت الحرام، كما كان لانضمامه لهذه الحلقة دور في عودته إلى إتباع غرائزه ، فتوبته كانت بالأقوال لا بالأفعــال و بانضمامه للحلقة انتقلت إليـــه عدوى العواطف و الأفكار و الحركــات و أصبح عبارة عن إنسان آلي تقوده إرادة المجموعة لا إرادته الشخصية ، وإذا كان الإنسان بمجرد انضمامه لمجموعة " ينزل درجات عديدة في سلم الحضارة ، فهو عندما يكون فردا معزولا ربما يكون إنسانا مثقفا متعقلا ، لكنه ما إن انضم إلى الجمهور حتى يصبح مقودا بغريزته و بالتالي همجيا ، و هو عندئذ يتصف بعفوية الكائنات البدائية و ضراوتها و حماستها و بطولاتها أيضا . و يقترب منها أكثر بالسهولة التي يترك نفسه فيها عرضة للتأثر بالكلمات و الصور التي تقوده إلى اقتراف أعمال مخالفة لمصالحه الشخصية بشكل واضح و صريح إن الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبة رمل وسط الحبات الرملية الأخرى التي تذروها الرياح على هواها"[31]، فإن عيسى ابن هشام بمجرد انضمامه للمجموعة الملتفة حول الحلقة قد فقد السيطرة على عقله وجسمه في أن واحد متأثرا بمن في الحلقة يقوده فضوله لاكتشاف ما يدور وسط الحلقة والملاحظ أن " النموذج الإنساني المتدين تغيرت صورته العلمية في العصر العباسي ، وافترق قوله و عمله و لسانه و قلبه ، وانتهى في المدينة إلى حياة القطيع ، متعلقا بالديانة لسانا منقطعا عن حقيقتها قلبا و سلوكا ، مخادعا نفسه بظواهر الأمر من غير النظر في حقائقــه و عواقبه"[32].

استمر عيسى ابن هشام في وصف رحلته إلى وسط الحلقة يقول " وسرت سير الأعرج فوق رقاب الناس ، يلفظني عاتق هذا لسرة ذاك ، حتى افترشت لحية رجلين وقعدت بين الأين" ، وقد عدد جملة الحركات و السكنات التي قام بها حتى وصوله ولنا أن نتصور حاله وهو يحاول وضع قدمه على الأرض مواصلا سيره ، وإذا به يضعها على عاتق رجل فيدفعه من شدة الألم ليجد نفسه يقف على بطن رجل آخــر و المتوقع أن يكون مستلقيا على الأرض و إلا ما كان لقدم عيسى ابن هشام أن تصل إلى سرته ، فيدفعها بدوره لتفترش لحية رجلين ، والواضح أن فضول عيسى ابن هشام تجاوز كل متوقع باختراقه كل ما كان يقف في طريقه ليصل إلى وسط الحلقة دون مراعاة خصوصية من كان يقف معه في هذه الحلقة ، والأكيد أنه لا يعرف أحدا من المتزاحمين في الحلقة فكان عليه أن يحافظ على مسافة فاصلة وهي المنطقة الخاصة " وهي منطقة من خاص ملك الإنسان ومما يحرص عليه فلا يبيح لأحد أن يدخلها ، وإن أحد فعل ذلك حقا فهو أحد إثنين : قريب حبيب ذو لحمة و عرى وثقى بصاحب المنطقة

المخترقة ، كالأب أو الزوج أو الأخت ، أو الإبن أو من سار بركب هؤلاء ، أو عدو مباغت أو لص نشال و ما شابه ذلك من معان تقوم في النفس"[33]، لكن الزحام الشديد هو الذي دفع به إلى اختراق مناطق الآخرين الخاصة مسيرا غير مخير ، وعادة ما يفضي اختراق مناطق الآخرين دون مبرر إلى ردود أفعال كلامية أو حركية يأتيها من انتهكت منطقته ، والحال كذلك مع عيسى ابن هشام فما إن سار على رقاب الناس حتى لفظه عاتق هذا لسرة ذاك ، والواضح أن رد الفعل الحركي كان لا إراديا نتيجة الألم الذي شعر به كل من اخترقت منطقته.

إن حالة السعادة والنشوة التي كانت سائدة في الحلقة جعلت كل من اخترقت منطقته يتقبل تلك الإثارة دون انزعاج أو رد فعل سلبي ذلك أنه في حالة السعادة " يحدث نشاط متزايد في مركز المخ يثبط المشاعر السلبية مع تنمية الطاقة المتزايدة المتاحة في هذا المركز ، فضلا عن تهدئة ما يولد أفكار مؤرقة ، ولا يحدث مع هذه التغيرات تحول فسيولوجي خاص يحول دون الهدوء الذي يجعل الجسم يشفى سريعا من الإثارة البيولوجية الناتجة عن الانفعالات المزعجة وهذه الحالة تحقق للجسم راحة عامة "[34]،غير أن عيسى ابن هشام في قرارة نفسه كان منزعجا من تصرفاته وهذا ما سبب له شعورا بالخجل ، يقول "وقد أشرقني الخجل بريقه ، و أرهقني المكان بضيقه "[35] ، والخجل من أصعب المشاعر التي يحتملها المرء إثر قيامه بعمل فيه احتيال ، و هو ينتمي إلى مجموعة المشاعر المزعجة ، " وتسمى هذه الحالة الذهنية غالبا بالعار الكاذب (mauvaise honte) وتعد واحدة من أكفأ الأسباب الداعية للتورد والخجل يدرك قطعا من احمرار الوجه و تنكيس العينين وحركات الجسم العصبية و الغريبة"[36]، كما أنه أجرى من لسانه ريقا غزيرا حتى أغصه به لكثرته، ولفرط حركته بين رقص و سير وصولا لوسط الحلقة خارت قواه بسب ضيق المكان من فرط الزحمة ، لقد انخرط عيسى ابن هشام مع الجماعة وساقه الفضول إلى ما ساقهم ، وانشغل بالعبث واللهو لدرجة المشقة، متناسيا بذلك زيارته إلى البيت الحرام و ما يترتب عنها من التزام وحرص على الزمن و البعد من اللهو .

بعد انقضاء العرض وانصراف الجمع كانت المفاجأة بالنسبة لعيسى ابن هشام "وقمت وقد كساني الدهش حلته "[37]،فلم يكن يتوقع أبدا أن يكون بطل الحلقة هو الاسكندري فما إن رآه حتى قام من مكانه و قد ارتسمت علامات الدهشة على وجهه التي تنتج عن حركات سريعة على ملامح الوجه فمع الدهشة ترتفع الحواجب إلى حد كبير لتسمح بنظرة شاملة ،أوسع مع فتح الفم و العينين على مصرعيهما ، ورفع الحاجبين ضرورة لكي تفتح العينان بسرعة واتساع وتتناسب درجة فتح الفم والعينين مع درجة المفاجأة التي يشعر بها المرء ، إن دهشة عيسى ابن هشام دليل على خيبة أمله بعد أن انطلت عليه حيلة الاسكندري مرة أخرى ، وقد جرت العادة عند الاسكندري على كشف جسده بعد حصوله على ما سعى إليه ، فإذا كان الجسد ساترا لما أخفاه في البداية كان هو الفاضح له في النهاية .وفي مقابل خيبة ابن هشام يقابله الاسكندري بإعلانه عن رغبته في تحقيق غايته بغض النظر عن تفاهة الوسيلة

و أنشد يقول:

الذنب للأيام لا لي فاعتب على صرف الليالي

بالحمق أدركت المنى ورفلت في حلل الجمال

محملا المسؤولية للأيام و الليالي و تقلبهما ، وهذا ما دفعه ليسلك أقصر السبل لجمع المال في ذلك الزمان

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

- صورت هذه المقامة إبداع الهمداني في إيضاح حركات شخصيات المقامة خدمة للأحداث و قد تنوعت بين الإرادية و التلقائية ، والمتمعن لأحداث المقامة يجد أن الهمداني كان متقصدا لإراده على هذا النحو ليبرز لنا قدرته على التخفي و التحكم في مجتمع كان يعاني من تمزق اجتماعي و شتات فكري إهتزاز في القيم.
- حاول الهمذاني ستر جسده و إبدال حاله بحال أخرى ، وهيئة تدل عل قدرته على الاحتيال من أجل غرض واحد هو الحصول على المال بعد أن أدرك أن العلم لا يمكن أن يكون مصدرا للرزق لأن العالم قد فقد مكانته في هذا المجتمع .
- كشف لغة جسد كل من كان في الحلقة على الكثير مما تخفيه نفوسهم ، فظاهر الشخصيات غير باطنها و الحال كذلك مع شخصية عيسى ابن هشام التي فهمت الدين فهما روحيا ، من خلال محاولة التبرك بزيارة البيت الحرام والتخلص من كل الآثام والذنوب ، وهو ما حاول إيهام القارئ به في بداية المقامة لكن سرعان ما كشف حركات جسده غير ذلك ، فإذا ادعى أحد التدين يجب أن يربط القول بالفعل .
- لم يكتف الاسكندري بجسده كوسيلة للاحتال على كل من كان في الحلقة فوظف القرد كوسيط للوصول لغرضه وهو الحصول على المال ، إلا أن استخدام القرد لم يكن اعتباطيا و إنما كان محملا بدلالات مختلفة أبرزها تقديم الحيوان على الانسان في مجتمع اختلت فيه كل الموازين.

الهوامش:

(1)-محمد محمد داود، جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية (دراسة دلالية و معجم) دار غريب للطباعة و النشر ، القاهرة ط1 ، 2006، ص7

(2)-المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

(3)-بني يونس محمد محمود ،سيكولوجيا الدافعية والانفعالات ط1، دار ميسرة 2007، ص340,

(4)-محمد محمد داود ،جسد الانسان والتعبيرات اللغوية، ص 8.

(5)-الأزهر الزناد ، اللغة والجسد، مركز النشر الجامعي ، تونس ، 2017، ص267

(6)-محمد الأمين موسى أحمد ، الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم ، دار الثقافة و الإعلام ن الشارقة 2003 ، ط1 ، ص40.

(7)- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

(8)-لغة الجسد ، محمد ممتاز ، دار خلود للنشر والتوزيع ، 2013، ص 10.

(9)- الأزهر زناد ، اللغة و الجسد ، ص 277

(10)- المرجع السابق الصفحة نفسها.

(11)-نفسه ،ص 278

(12)-مهدي أسعد عرعار، البيان بلا لسان، دار الكتب العلمية ، لبنان ،ص38.

(13)-المرجع السابق الصفحة نفسها .

(14)- المرجع السابق ،ص 279

(15)-مهدي أسعد عرعار ، البيان بلا لسان،ص 38

(16)- وليم لا مبرت ، وولاس لامبرت ، علم النفس الاجتماعي ، تر: سلوى الملا ،

دار الشروق ، بيروت ،
(17)-الأزهر زناد،اللغة و الجسد ،ص279.
(18)-المرجع نفسه
(19)-المرجع نفسه
(20)-كريم زكي حسام الدين ، الإشارات الجسمية" دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل "، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1991 ، ص30_31
(21)- المقامة القردية
(22)-مهدي أسعد عرعار، البيان بلا لسان نقلا عن نتالي باكو ،لغة الحركات ، ترجمة سمير شيخاني ، دار الجيل ، بيروت 1995،ط1
(23)-المقامة القردية
(24)-تيرنس دبليو ، ديكون، الإنسان ..اللغة .. الرمز ، التطور المشترك للغة والمخ ، ترجمة شوقي جلال ، القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، 2014، ص ص 784،785
(25)-المقامة القردية
(26)- المقامة القردية
(27)-تيرنس دبليو ، ديكون : الانسان اللغة الرمز، التطور المشترك للغة والمخ ، ص785
(28)-المقامة القردية
(29)- غوستاف لو بون ، سيكلوجيا الجماهير ، تر : هاشم صالح ، بيروت – لندن ، الطبعة 7 ، 2016
(30)-فريد الزاهي ، النص و الجسد و التأويل ، ص 154
(31)-غوستاف لو بون ، سيكولوجية الجماهير ، ص 60
(32)-عبد الكريم محمد حسين ، المقامة القردية الفكرة و البناء، www.startimes.com 21197102=?/،
(33)-المرجع السابق ، ص 63
(34)-محمد الأمين موسى أحمد،الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم ، دار الثقافة و الإعلام الشارقة ،2003، ص 16652
(35)- المقامة القردية
(36)-تشارل داروين ، التعبير عن العواطف عند الانسان و الحيوان ، ترجمة محمد عبد الستار شيخلي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، بيروت ،جوان 2010، ص 369
(37)-المقامة القردية